البجداييني، ياسين. مجلة القدس للبحوث الأكاديمية
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية1(2): 27-35, 2023
DOI: https://doi.org/10.47874/2023pp:27-35

# سيرة الحياة كمنهج: من البحث السوسيولوجي إلى التدخل الاجتماعي

ياسين البجداييني

## الملخص

تناولت هذه المقالة استعمالات سيرة الحياة، وقد تم الاقتصار على استعمالين: الأول هو البحث السوسيولوجي، والثاني هو التدخل الاجتماعي. فإذا كانت سيرة الحياة أداة لا غنى عنها للبحث السوسيولوجي الكيفي، التي تُمكن من جمع المعطيات التي تشكل أساس بناء فهم تأويلي للقضايا والوقائع والمشكلات الاجتماعية المطروحة، فإنها أضحت في الوقت المعاصر أداة للتدخل الاجتماعي، لأنها تمكن من إعادة بناء معنى الحياة لدى المستهدفين، ومساعدتهم على التصالح مع ذواتهم وتاريخهم الشخصي في أفق بناء رؤية جديدة حول الذات والتاريخ والوجود. وعليه يمكن التأكيد، أن سيرة الحياة ليست أداة ووسيلة للأكاديميا والإكلينيكية وحسب، وإنما آلية لتحقيق الاعتراف الاجتماعي بالإنسان، وأنسنته في ظل التحولات العالمية، ولدمقرطة الممارسات المهنية الموجهة للأشخاص في أوضاع صعبة.

**الكلمات المفتاحية:** سيرة الحياة، البحث السوسيولوجي، التدخل الاجتماعي، الاعتراف.

# Life Story as a Method: From Sociological Research to Social Intervention

## Abstract:

This article discusses the uses of *life story*, focusing on two applications: the first is sociological research, and the second is social intervention. If *life story* is an indispensable tool for qualitative sociological research, which enables the collection of data that forms the basis for an interpretive understanding of the issues, events, and social problems raised, it has also emerged as a tool for social intervention in contemporary times, as it enables the reconstruction of the meaning of life for the target group and helps them reconcile with their personal history in a new perspective on self, history, and existence. Therefore, it can be confirmed that *life story* is not just a tool and means for the academic and clinic, but rather a mechanism for achieving social recognition of the human being and humanization of him/her in the context of global transformations and democratization of professional practices targeted to persons in difficult situations.

**Keywords:** Life story, Sociological Research, Social Intervention, Recognition.

ياسين البجداييني هو مرشح دكتوراه، مختبر استراتيجيات صناعة الثقافة والاتصال والبحث السوسيولوجي, جامعة محمد الأول بوجدة، جهة الشرق، المملكة المغربية.
للمراسلة - البريد الإلكتروني yassine.elboujadaini@ump.ac.ma.
حقوق النشر ٢٣ . ٢, جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن الاستخدام عن طريق جامعة القدس, (www.alquds.edu).

## مدخل إشكالي عام

ظهرت سيرة الحياة في ميدان البحث السوسيولوجي والتدخل الاجتماعي كمنهجية قائمة بذاتها في نهاية القرن العشرين، وارتبط تصاعد الاهتمام بها واستعمالها في البحث وتقصي الحقائق الاجتماعية بسياق التحولات التي تعرفها العلوم الاجتماعية وبراديغماتها من جهة، والتغيرات التي تعرفها المجتمعات المعاصرة الناتجة عن الانتقال إلى حقبة الحداثة وما بعدها من جهة أخرى، التي صارت تعرف ظواهر اجتماعية جديدة ترتبط أساساً بظهور فئات جديدة في وضعية هشاشة اجتماعية ونفسية، تصارع من أجل البقاء وإثبات الذات وإنتزاع الاعتراف بوجودها. فالتحولات التي عرفتها المجتمعات المعاصرة كان لها بلا شك وقع كبير على حياة الأفراد ومعيشهم ونظرتهم إلى ذواتهم وروابطهم الاجتماعية، وإلى وجودهم الخاص ونظرتهم إلى الكون بالمعنى الفيبري بشكل عام. الشيء الذي فرض تطوير المناهج الكلاسيكية، الهوليستية تحديداً، من خلال النبش في ما هو ميكرو-سوسيولوجي، وبالتالي بدل الانطلاق من البنى والأنساق الكبرى، فرض الواقع المتحول العكس من ذلك، الانطلاق من الذوات نحو البنيات.

تندرج سيرة الحياة موضوع هذا المقال في هذا الإطار، والتي تُستعمل اليوم في حقول معرفية متعددة (في الآداب، والتاريخ، وعلم النفس، والفلسفة، والسوسيولوجيا ...). فبالرغم من أنّها ظهرت في السوسيولوجيا العامة كأداة لجمع المعطيات، وتشخيص مجموعة من المشكلات الاجتماعية، فإنها أضحت في الوقت المعاصر أداة للسوسيولوجيا الإكلينيكية، الشيء الذي جعل منها منهجية قائمة بذاتها، لها تقنياتها وفاعليها. وهنا لابد من الإشارة إلى أن تطور هذه الأداة في الحقل التدخلي كان بالتوازي مع تطور الفهم العلمي للمشكلات الاجتماعية، والتخلص التدريجي من التفكير الباثولوجي، والسعي نحو وضع أسس تفكير منهجي قائم على الفهم والتأويل والمشاركة الوجدانية، وليس البناء السياسي والأيديولوجي للمشكلات، بقصد شرعنة الممارسات التدخلية التي تتنكر لذاتية الإنسان وفاعليته وتاريخانيته.

من بين الأسباب الرئيسة التي دفعتنا إلى الاهتمام بهذا الموضوع، نذكر افتقار المكتبات في السياق المغاربي والعربي، إلى محاولات لتطوير التراث العلمي المنتج بخصوص هذا المنهج السيري، وتعميق النقاش بخصوص تقنياته على المستويين البحثي والتدخلي. ويمكن تفسير هذا التأخر بعاملين: الأول هو عدم تبلور السيرة الذاتية في الثقافة العربية القديمة «كجنس أدبي مستقل لغياب شرطيها الأدبي والسوسيولوجي، حيث كان الإنسان العربي المسلم يذوب في الجماعة والأمة، وفي المطلق أو المتعالي الديني، ومن ثم غاب مفهوم الذات الواعية المستقلة، كما ضعف الوعي بمركزية الإنسان الفرد، وبمفهوم الآخر في الجدل الاجتماعي والثقافي، وما برز بالمقابل هو السيرة الغيرية» (فوبار، ٢٠١٥، ص. ١٩٥)، هذا التأخر على المستوى الأدبي كفيل بأن ينبئنا بالتأخر في استخدام المنهج البيوغرافي على المستوى العلمي. والثاني هو الأشكال الجديدة للتبعية للدول الرأسمالية، يتعلق الأمر بالتبعية العلمية والفكرية. فالدراسات المنتجة بفرنسا تأخرت مقارنة مع البلدان الآخرى في الإعتماد على هذا المنهج وتقنياته، ولم يتم الوعي بأهميتها والانطلاق في تطبيقها إلا خلال السبعينيات من القرن العشرين (كيال ، ٢٠١٥، ص. ١٧)، نظراً لسيطرة التوجهات الهوليستية في البحث الميداني، والبنيوية في الممارسة التنظيرية، والتقليل من شأن الذاتية وفاعلية الفاعلون الاجتماعيون وديناميات الحياة اليومية وتدفقاتها، وهو التأخر الذي انتقل إلى المغرب، الذي عرف انطلاقته في العلوم الإنسانية مع الاستعمار الذي جند مجموعة من المستكشفين والرحالة والباحثون بقصد بناء فهم كلي حول المجتمع المغربي، فهم يمكن الاستناد إليه في التدخل والضبط وتبرير الفعل الاستعماري، وهي التبعية التي تستمر في الوقت الراهن، بواسطة اللغة والنظرية والمنهج، وذلك بالنظر إلى وفرة الإنتاجات العلمية والكتابة من طرف شريحة واسعة من باحثينا باللغات الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية والإسبانية تحديداً)، الشيء الذي يساهم في إعادة إنتاج هذه التبعية العلمية، التي انعكست وتنعكس في تأخر اهتمام الباحثون والفاعلون المهنيون ومؤسسات الاستقبال بسيرة الحياة وتقنياتها.

تأسيساً على هذه الاعتبارات والمفارقات، يمكن صياغة إشكالات هذه الورقة في الأسئلة التالية:
كيف يُمكن تحديد وتعريف سيرة الحياة؟ بأي طريقة يمكن التمييز بين استعمالاتها البحثية السوسيولوجية من جهة والتدخلية من جهة أخرى؟ وما هي مزايا استخدامها في الممارسات التدخلية بالمجتمعات المعاصرة؟



### ا) سيرة الحياة والتدخل الاجتماعي: محاولة في التحديد والتعريف

إذا كان هناك شبه إجماع بين الباحثين على أنّ سيرة الحياة هي منهجية لجمع المعطيات، فإنّ الاختلاف بينهم يظهر في طريقة استخدامها، أو بالأحرى في الكيفية التي يمكن العمل بها فكرياً ومنهجياً في مقاربة الحقل الميداني. وقد اختلفت التعاريف المقدمة لهذه الأداة علمياً وتدخلياً، وذلك بالنظر إلى اختلاف المرجعيات العلمية للباحثون ورهاناتهم من وراء استعمالها وتوظيفها في ممارساتهم، علمية كانت أو مهنية.

ففي ميدان المنهجية السوسيولوجية والكيفية تحديداً، يتم اعتبار «سيرة الحياة» أداة لجمع المعطيات الميدانية، قصد تحليلها وتفسيرها في أفق بناء براديغمات علمية مفسرة للظواهر المدروسة. وفي هذا الإطار، يؤكد «دانييل بيرتو» Daniel Berteaux على أنّ سيرة الحياة هي شكل خاص للمقابلة، مقابلة سردية، يطلب من خلالها الباحث من مبحوثه سرد أجزاء من تجربته المعيشية (Berteaux, 2005, p. 10). وبهذا، فهو يعتبر سيرة الحياة بمثابة وسيلة لمعرفة الآخر، و هو التعريف الذي يعطيه كذلك كل من «دامازييير» Damaziére و«دوبار» Dubar (١٩٩٦)، «وجلبرت» و«بينو» Jolibert et Pineau (١٩٨٩)، و«لوكغند» Le Grand (١٩٩٣) وغيرهم (Annejoyeau et al, 2010, p. 16) .

إذا كان التعريف الذي تطرقنا إليه أعلاه دقيق نسبياً، فإنّ هناك تعريفات أخرى واسعة إلى حد ما، وهنا لا يسعنا إلّا استحضار التعريف الذي قدمه «فريدريك واشو» Frédéric Wacheux الذي يعتبر سيرة الحياة بمثابة «استراتيجية لولوج الواقع». مُضيفاً إلى ذلك، أنها تحليل حكاية فاعل اجتماعي معين مع التركيز بالطبع على الأحداث التي عاشها خلال مسار حياته. مشيراً في هذا الصدد، إلى كون الفاعل يظل حراً في سرد الوقائع والتأويلات التي يعطيها، بعبارة أخرى إنّ الذاتية حاضرة بقوة، ولكن الأهم هو أنها معروفة و معلومة (Wacheaux, 1996, p. 127). فبالإضافة إلى كون سيرة الحياة هي وسيلة لولوج الواقع، فإنها كذلك أداة لجمع المعطيات الميدانية كباقي التقنيات، غير أنّ ما يلح عليه «واشو» هو كون سيرة الحياة تختلف بشكل جذري عن المقابلة سواءً المفتوحة أو غير الموجهة (Annejoyeau et al, 2010, p.17).

في مقالها حول السيرة الحياتية، تعرفها الباحثة «مها كيال» بأنها تاريخ حياتي يحكي ذاكرة فرد أو جماعة اجتماعية محددة لها خصوصيتها الثقافية، يعرض هذا التاريخ بطريقة سردية، كما عاشه راويه. هذا الراوي يمتلك الحرية في تشكيل الحقائق التي عاشها وفي تفسيره لها، ويتم نقل هذه الذاكرة، من قبل الراوي نفسه (سيرة ذاتية Auto-biographie) أو من قبل الباحث (سيرة حياتية biographie) (كيال، ٢٠١٥, ص. ١٥). وقد أكد الباحث «محمد فوبار» بأنّ السيرة هي وصف حياة الذات وسيروراتها في الزمن الاجتماعي (فوبار، ٢٠١٥, ص. ١٩٣). تأسيساً على ما سبق، يمكن اعتبارها مساراً حياتيا للذات الإنسانية، بما يشمل ذلك من منعطفات وتواريخ وأحداث وعلاقات وتفاعلات اجتماعية، وذلك المجموع من الخطابات المبنية حول التجارب المعيشة والأفعال الاجتماعية التي صدرت عن الفاعل، والتي أضفى عليها معاني اجتماعية بالاستناد إلى رؤيته للعالم ومخياله الاجتماعي والثقافي.

فبالرغم من أن بعض السوسيولوجين والأنثربولوجيين قد اتخذوا منها موقفاً سلبياً وانتقدوها، من منطلق أنها لن تمكن من صياغة قوانين علمية، ومن ولوج الواقع الاجتماعي المبني، إلا أنّ بعضهم تراجعوا على ذلك فيما بعد، وهنا يمكن أن نستحضر «بيير بورديو» Pierre Bourdieau و«كلود ليفي ستراوس» Claude Lévi-Strauss كنماذج، حيث انتقدوا سيرة الحياة، وشككوا في صلاحيتها في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية.
في مقاله الموسوم ب «الوهم البيوغرافي» أكد «بيير بورديو» أن سيرة الحياة هي إحدى مفاهيم الحس المشترك، التي اقتحمت حقل المعرفة العلمية: من خلال علماء الإثنولوجيا، وكان ذلك بدون ضجة، ومن خلال علماء الاجتماع في الوقت المعاصر وكان ذلك بصخب كبير (Bourdieu, 1986). أمّا «كلود ليفي ستراوس»، فبالرغم من أنه يعترف بأهمية سيرة الحياة على المستوى المنهجي والتحليلي، وعلى الرغم من كتابته لسيرة رحلاته إلى البرازيل الأوسط المعنونة ب«المدارات الحزينة tristes tropiques»، إلّا أنه اعتبر مسألة اللجوء إلى هذا المنهج بشكل منتظم لا يسمح بالوصول إلى البنى التي تهم المفكر والمنظر، فالمعيش le vécu بالنسبة إليه لا يعتبر البتة بمثابة مادة علمية (Gonseth & Maillard, 1987).

إذا كانت سيرة الحياة في ميدان المنهجية السوسيولوجية مختلفة عن المقابلة، وباقي التقنيات الاخرى، ويشار إليها بمفاهيم متعددة ك«حكاية الحياة» و«المقاربة البيوغرافية» و«تاريخ الحياة» و«سيرة الممارسة» و«السيرة الذاتية» فإن الأمر نفسه ينطبق على سيرة الحياة في ميدان التدخل الاجتماعي، حيث يشار إليها من خلال مفهوم «الرواية العائلية Roman Familial» و«مسار حياة trajectoire de vie» و«المقاربة البيوغرافية L'approche Biographique» و«التدخل السردي L'intervention narrative» كلها مفاهيم تحمل نفس المعنى، ولها نفس الهدف من داخل السوسيولوجيا الإكلينيكية، ألا وهو: التمكن من إعادة بناء معنى الحياة، فضلاً عن التمكن من ولوج الواقع كعملية تدييث subjectivation (Francequin, 2008, pp. 159-160).

إنّ التدخل عن طريق سيرة الحياة هو بمثابة منهجية ظهرت خلال نهاية القرن العشرين نظراً لأزمة السير الكبرى (Lyotard, 1979)، ف«فينسنت دو كولجاك» Vincennt de Gaulejac عرف التدخل عن طريق سيرة الحياة بأنه ممارسة تعتمد سيرة الحياة قصد التأثير على الأشخاص والجماعات أو المجتمعات في أفق تغييرها (Gaulejac, 2008, p.14). كما أنه وسيلة لتعزيز وتقوية الرابطة الاجتماعية الهشة في مجتمعات ما بعد الحداثة. فسيرة الحياة كأداة للتدخل تقود إلى الاعتراف بالذات من خلال الذات والغير، وهي لا تستطيع تغيير التاريخ الحياتي للشخص (لأن هذه المسألة مستحيلة)، وإنما تسعى إلى تغيير علاقة الشخص بالتاريخ (Gaulejac, 2008).

تأسيسا على هذه المعطيات، يمكن تعريف سيرة الحياة بوصفها أداة تدخلية، ووسيلة لإعادة الاعتبار للذات والاعتراف بها وتغيير تمثلاتها حول نفسها وتاريخها, إلى جانب جعلها منفتحة على وجودها وعلاقة هذا الأخير مع وجود الآخرين (Lefebvre, 2008). وهذا معناه، أن سيرة الحياة هي أداة تؤهل الفرد لمعرفة طبيعة وجوده داخل الوجود العام، وهذا يبين مدى تأثير الفلسفة الوجودية على رواد هذا التيار المتبني للسير الحياتية كأسلوب للتدخل، تلك الفلسفة التي تعتبر بأنّ الوجود يسبق الماهية بتعابير «جون بول سارتر»، وليس الوعي هو الذي يحدد الوجود، كما راهنت على ذلك الفلسفة الديكارتية.

بالعودة إلى «دو كولجاك» في هذا السياق، يظهر بأنّ سيرة الحياة تختلف بشكل جذري عن التنمية الذاتية le developement personnel والعلاج thérapie. فإذا كانت هاتين المقاربتين الأخيرتين تركزان على العمل مع الشخص وصراعاته ومعاناته الحالية وإمكانياته أو بالأحرى إيلاء اهتمام خاص لكل ما يتعلق بالهُنا والآن، فإنّ سيرة الحياة تسعى إلى اكتشاف تاريخ الحياة وسير الوجود، فهي تبعد الذات ما أمكن مع التركيز على مسارها، والأحداث الماضية القديمة المستمرة في الحاضر (أي البقايا الماضية)، والتي يُتوقع أن تستمر في المستقبل. ونعتقد بأن السبب في مختلف هذه التركيزات، هو الانطلاق من كون الإنسان، هو نتيجة للتاريخ الشخصي الذاتي، وهو التاريخ الذي لا ينفصل عن علاقات الإنسان بالآخرين، وعن رؤيته للوجود وللعالم الذي يعيش فيه.

في نفس هذا السياق يؤكد «أليكس ليينى» Alex Lainé على أنّ سيرة الحياة تختلف عن ما يسمى بتاريخ الحياة histoire de vie، ويتجلى هذا الاختلاف في كون سيرة الحياة هي لحظة في سيرورة إنتاج تاريخ الحياة، معرفاً إياها بكونها تعبير مكتوب أو شفوي على الحياة السابقة للراوي (1988, p. 112).

انطلاقاً مما تم التطرق إليه، يمكن القول أنّ سيرة الحياة في إطار حقل «المنهجية السوسيولوجية» تعتبر أداة لجمع المعطيات حول الظواهر والمشكلات الاجتماعية وأفعال الفاعلين والمعاني الرمزية التي يضفونها عليها، وهي ديناميكية وفي تطور وتقدم مستمرين. أمّا في حقل السوسيولوجيا الإكلينيكية والتدخل الاجتماعي تحديداً، فهي أداة ناجعة للتدخل والعلاج، وقد استعملها مجموعة من الباحثين المرموقين في حقل السوسيولوجيا الإكلينية ونخص بالذكر «دوكولجاك»، «رولاند لوفيبفر» Roland Lefebvre الذي استخدمها عن طريق الورشات، وأسس أداة من داخل هذه المنهجية سماها ب«ورشة سيرة الحياة» مجرباً إياها مع المدمنين على الكحول، ومثبتاً فعاليتها ونجاعتها وتفوقها على المقاربات العلمية الطبية الاخرى (Lefebvre, 2008)، كما استعملها «لوسي ميرسيي» Lucie Mercier مع الأشخاص المسنين مؤكداً كغيره على فعاليتها (Mercier, 2008). فسيرة الحياة في حقل التدخل الاجتماعي مازالت فتية، و لكنها تعرف تطورات ملفتة للنظر، مما جعل من تقنياتها متعددة (الكتابة، الورشة ...).



**2) التدخل الاجتماعي عن طريق سيرة الحياة:**

نقصد بالتدخل الاجتماعي، مجموعة من الممارسات الإكلينيكية الهادفة إلى تأهيل وإعادة إدماج الفئات الاجتماعية المنحرفة على المعايير الاجتماعية، أو التي تعيش على هامش المجتمع نظراً لأوضاعها الاجتماعية أو للتمثلات السائدة عليها التي تكرس الدونية وتوجه ممارسات الميز والوصم والتهميش والإقصاء. ويشكل في الوقت الراهن حقلاً واسعاً في العلوم الاجتماعية بشكل عام، والسوسيولوجيا بشكل خاص، وقد تعددت مقارباته وتقنياته تاريخياً، تبعاً للتحولات التي يعرفها العلم والمجتمع. وتشكل سيرة الحياة من أهم أدواته التي ارتبط ظهورها بأزمة السير الكبرى (Lyotard, 1979)، والتي لم تنال حقها الكافي من المُدارسة العلمية والتطبيقات العملية العلاجية.

ظهرت سيرة الحياة في حقل السوسيولوجيا التدخلية بوصفها أداة، لكنها سرعان ما أصبحت منهجية قائمة بذاتها، ولها مجموعة من التقنيات أبرزها (ورشات الكتابة Tables d'écriture، وورشات سيرة الحياة Les ateliers de récit de vie، ...). فمن خلال هذه التقنيات يتم فهم التاريخ الحياتي للشخص، وهو ما يستدعي بالضرورة حسب «دو كولجاك» فهم المعنى الذي يعطيه الفاعل لتاريخه، قائلاً في هذا السياق : «إن التاريخ ليس له أي معنى، إلا المعنى الذي يعطيه هو لتاريخه»، ذلك أنّ المعنى الذي يعطيه الفرد لتاريخه مخالف تماماً لما يعطيه المتدخل لتاريخه ولوجوده بشكل عام. فإذا كانت الذات عاجزة على تغيير ماضيها، فإن هذا لا يمنع من تعديل وتوجيه مستقبلها، فالإنسان بطبيعته يحب سرد التواريخ، خاصة عندما يكون التاريخ الذي يحكيه يدور حول نفسه (de Gaulejac ,2008) .

يمكن أن يعترض البعض على سيرة الحياة، مبرراً اعتراضه ذاك بأنّ الراوي قد لا يسرد للباحث حقيقته الخاصة سواءً بوعي منه أو بدون وعي منه، بمعنى أن سيرة الحياة يمكن أن تكون صحيحة ويمكن أن تكون بعيدة عن الحقيقة المعاشة، وبالتالي السقوط في ما يسميه «بيير بورديو» بالوهم البيوغرافي (Bourdieu, 1986) وهذا هو فخ سيرة الحياة. وفي هذا الإطار يؤكد «فيليب لوجون» Philippe Le Jeune, على أساس أن الراوي ليس هو الذي يقدم حقيقة نفسه، وإنما الذي يقول ما قاله (1998, p. 313)، بمعنى آخر إن المتدخل عن طريق سيرة الحياة ينبغي أن تكون له كفاءة ليكشف من خلالها مدى صحة ما يقوله الراوي، وذلك عن طريق التركيز على الأحداث التي مر منها، وحركاته وملامح وجهه والقصص التي يحب أن يحكي عنها والجوانب التي يتهرب من التفصيل فيها وغيرها.

إن سيرة الحياة الفردية والمؤسساتية والجماعية تمكن من إعادة بناء الماضي (جذور الحياة) والحاضر (اللحظة المعيشة والآنية) والمستقبل (مشروع الحياة) في نهج إكلينيكي محترم للذات (Francequin, 2008, pp. 159-160)، أو بعبارة أخرى أنه بفعل السير يخضع الفرد لما يسميه البعض بالعيادة التاريخانية، وهذه العيادة هي التي تسمح بإعادة الماضي على ضوء الحاضر من أجل التخطيط للمستقبل (de Gaulejac, 2008, p. 316)، وهذه السيرورة التاريخانية هي عنصر أساسي لإنتاج المعنى، لأن الذات هي في محاولة مستمرة لإعطاء معنى لما هي، وما تفعل، و تجربتها، وعلاقتها مع الآخرين (Barus-Michel, 2004, p. 17).

إنّ هذا الاحترام للذوات هو الذي يفرض التركيز على مسألة معنى الوجود، سواءً كان مكتوباً أو شفوياً، وبهذا فهي بمثابة أداة لتغيير الشخص أو الجماعة أو مجتمع معين، وذلك في حدود سيرورة بناء المعنى التي تتأسس على أربعة ركائز أساسية وهي: العيادة la Clinique, والتاريخ l'Histoire, والمعيش le vécu, والانعكاسية La reflexivité, (de Gaulejac, 2008, p. 314).

العيادة: هنا يتحدث «دو كولجاك» على سيرورة بالغة الأهمية تنطلق من إعداد خطاب لتنشيط الذكاء الاجتماعي، وهو ما لا يتأتى إلا من خلال تشخيص الذاتيات الفردية وتعبئتها التي تتم من خلال الإنصات المركز للأفراد/ الذوات، والأكثر من ذلك الإحساس بهم وبمشاعرهم، من أجل حمايتهم من المخاطر، وذلك في خدمة مشروع جماعي، والتأسيس لما يسمى بالذاتية الاجتماعية.

التاريخ: إن التاريخ يعيد التساؤل حول فهم استمرارية العناصر الماضية في الحاضر، ويقيم مسافة بينها وبين الهنا والآن، فالتاريخ الشخصي للذات الإنسانية، يتدخل في مختلف الطرق التي تعتمدها في التفكير والفعل والشعور والتفاعل. وعلى المتدخل أن يؤهل المُستفيد إلى الوعي بالكيفية التي يتدخل بها هذا التاريخ، في أفق حصر تدخلاته في الفعل والتفاعل الاجتماعيين في الحاضر، الذي سيشكل الماضي في المستقبل.

المعيش: قبل الحديث عن أهمية المعيش في التدخل الاجتماعي عن طريق سيرة الحياة، ينبغي أن نشير إلى أنّ المفكرين تجاهلوا لمدة طويلة المعيش اليومي للأفراد، لكن في الوقت المعاصر أصبحت مسألة معرفة التجربة الذاتية وسيلة لمعرفة الإنسانية وحقيقتها. فالمعيش يكشف البعد الوجودي للعلاقات العائلية والاجتماعية والمؤسساتية، ولا يتم التركيز على الكيفية التي يعيش بها الفرد حياته وتمثلاته وحسب، وإنما يتم التركيز كذلك على مشاعره وأحاسيسه وإدراكاته. فانفتاح الفرد على معيشه يجعله يكشف الطريقة التي ساهم من خلالها في إنتاج تاريخه، ومع مرور الزمن يمكن له أن يراجع تأويلاته التي بناها خلال مرحلة معينة حول صراعاته والأساليب التي نهجها لمواجهتها.

الانعكاسية: هنا يظهر دور المتدخل الذي ينبغي أن تكون له نظرة شمولية حول مسار الحالة، وينبغي أن يكون قادراً على تأويل المسار الحياتي للأفراد، لكي يفهم مدى انعكاس الوقائع التي مر من خلالها الفرد على حياته.
من خلال تركيز المتدخل على هذه الجوانب الأربعة في تدخله يمكن أن يعيد بناء المعنى، لأن المعنى - هو في كل الحالات - بناء، والتمكن من إعادة بنائه هو الكفيل بتغيير الأفراد والمجتمعات موضوع سيرة الحياة ذات الطبيعة التدخلية الإكلينيكية.

**3) التدخل عن طريق سيرة الحياة والأشخاص في وضعية هشاشة: المهاجرون كحالة ميدانية**

تعرف المجتمعات المعاصرة أوضاع الهشاشة، باختلاف أوجهها وأبعادها ومؤشرات رصدها، إلا أن هناك مجموعة من التعبيرات حول الشعور بها. فالهشاشة في الوقت الحاضر صارت استراتيجية أكثر منها وضعاً ناتجاً عن عوامل وظروف معينة. وفي هذا الصدد أكد الفيلسوف والسوسيولوجي «بيير بورديو» أن الهشاشة ليست نتاج لقدرية اقتصادية أو للتحولات التي نتجت عما يسمى بالعولمة، وإنما نتاجاً لإرادة سياسية وتمثل قرينة النظام الرأسمالي النيوليبرالي. فعالم الإنتاج سواءً المادي أو الثقافي يجد ذاته مدفوعاً نحو سيرورة للتفقير والهشاشة، بالشكل الذي يجعل من هذه الأخيرة مندرجة ضمن نمط هيمنة من نوع جديد مشيد على تأسيس حال معممة ودائمة من اللاأمن الموضوعي والذاتي سواء بالنسبة للذين تمسهم مباشرة كالعاطلين عن العمل، أو الذين تمسهم بشكل غير مباشر كالمدرسين والصحافيين والطلبة والمستخدمين والعمال الذين يتم إكراههم على الاستغلال المفرط وتقبله (الاستغلال المرن Flexploitation) (Bourdieu, 1998). ونرى أنه بالإضافة إلى كونها استراتيجية وبراديغم للفهم (Pierret, 2013)، فإنها شعوراً ووضعية اجتماعية تفاعلية في نفس الوقت، فمن خلال هذا المفهوم لا يمكننا التعبير عن وضعية صعبة مفارقة وحسب، وإنما تجاوز مجموعة من التقسيمات بين الباحثون، خاصة بين الذي ينتصر للفعل والفاعل ومشاعره وتأويلاته، والذي ينتصر للوضع والنسق والظروف الموضوعية.

من خلال مجموعة من الأبحاث التي تم إجرائها أو المشاركة فيها على المستوى المغربي، توقفنا إلى أن الهشاشة تظهر بشكل واضح في الوضعية الاجتماعية للمهاجرون الأفارقة المنحدرون من دول إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى (البجداييني، ٢٠٢١؛ البجداييني، ٢٠١٩) الذين أصبحوا يعيشون أوضاع مفارقة، وذلك بالنظر إلى طبيعة مشاريعهم الهجروية التي تستهدف البلدان الأوروبية، والسياسات الهجروية الأوروبية التي انخرط فيها المغرب، واستراتيجياته في التوافق مع التزاماته الإقليمية والدولية التي تقتضي بلورة برامج وسياسات بقصد تسوية أوضاعهم الإدارية وإدماجهم، وفي سياقات اجتماعية غير مؤهلة لا اقتصادياً ولا ثقافياً لاستقبال المهاجرون بإثنيات مختلفة، بل في سياقات موسومة بهيمنة الثقافة الهجروية. وقد تم الوقوف في الأعمال البحثية المشار إليها إلى أهمية سيرة الحياة في الكشف عن المسارات الهجروية والرهانات الشخصية والأوضاع الاجتماعية والديناميات الهوياتية والتفاعلية، وبالاستتباع بدى أنه من الأهمية بمكان أخذ حكايا حيواتهم بعين الاعتبار في أي سياسة هجروية موجهة إليهم، أو إلى فئات مهاجرة أخرى، تتبنى على المستوى المرجعي المقاربة الإنسانية والحقوقية الكونية، بل إننا نعتبرها أساساً لا يمكن الاستغناء عنه في أي برنامج أو فعل يطمح إلى إدماجهم في المجتمع المغربي.



فمن خلال السرديات الفردية يمكن التوصل إلى بناء سيرة جماعية لجماعة معينة أو لحركة اجتماعية معينة، وهنا تتجلى أهمية تقنية سيرة الحياة، إذ تمكننا من الانتقال بسلاسة، وبطريقة منهجية، من الفردي نحو الجمعي، من الميكرو نحو الماكرو، وفي ذلك ليس انقلاباً على المناهج الكلاسيكية في العلوم الاجتماعية، وإنما تطويراً لها. فعلى المستوى الإفريقي على سبيل المثال، بدى من خلال سير المهاجرون الأفارقة بالمغرب، كيف أن الهجرة الدولية في المجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى هي نتيجة علاقات التبعية التي ربطت بين هذه المجتمعات والدول الغربية الرأسمالية، وبأن هذه الأخيرة كانت فاعلاً رئيساً في خلق التحركات الهجروية في بنياتها الاجتماعية، واتخاذها لصيغ أكثر مخاطرة، ولاإنسانية. تتجلى تلك الفاعلية في الاستعمار المباشر، والهجرة العمالية، والسياسات الهجروية الانتقائية، والعلاقات الدولية اللامتكافئة القائمة على الاستغلال والتبعية الاقتصادية وتنمية التخلف بأبعاده المتعددة. الشيء الذي يحيلنا على أنه يمكن بناء سيرة جماعية للمجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى وتحركاتها الهجروية استناداً إلى السير الحياتية لفاعليها، أعضائها بالدرجة الأولى. تأسيساً على ذلك يمكن, بناء سياسات إنسانية واستراتيجيات تدخلية شاملة لتدبير الأوضاع الهجروية والجماعات المهاجرة سواءً في بلدان الأصل أو العبور أو الاستقبال قوامها سيرة الحياة كمقاربة تدخلية.

الجدير بالذكر في هذا السياق إلى أن المجتمعات الإسلامية في شمال إفريقيا خصوصاً تعرف بروز مجموعة من الجماعات التي يتعين على الدول والتنظيمات المدنية السعي إلى إدماجها في بنياتها الاجتماعية، كالأشخاص في وضعية شارع والأمهات العازبات والأشخاص في وضعية انحراف ... لقد صار من الأهمية بمكان الاعتراف بهذه الفئات كأجزاء من المجتمعات، واعتبار أوضاعها الاجتماعية مشكلة اجتماعية وليس وقائع عابرة، وفي ذلك اعترافاً بالظاهرة وخطوة أولية نحو إيجاد حلول إنسانية وعملية لها. ونرى استناداً إلى ملاحظاتنا بأن التدخل عن طريق سيرة الحياة ستكون أداة ناجعة لمختلف مؤسسات الاستقبال، فمن خلالها يشعر الفاعلون بالاعتراف الاجتماعي والمؤسساتي، ويتم تجاوز مختلف مظاهر الوصاية والأبوية وكل ما يُشعر المستهدفين بأنهم موضوع برامج إصلاحية، وبأنهم «منحرفون» على القيم الاجتماعية، فمثل هذه المشاعر تولد دونية اجتماعية وردود أفعال مقاوماتية واندفاعية، تحكم في واقع الحال بالفشل على البرامج المعتمدة بقصد إعادة إدماجهم في الأنسقة الاجتماعية.

## على سبيل الختم

يمكن القول إن منهجية سيرة الحياة ظهرت في المجتمعات الحديثة في ميدان البحث السوسيولوجي من أجل إعادة الاعتبار للذوات الإنسانية والاعتراف بكينونتها التي فقدتها مع المقاربات البنيوية والهوليستية التي حاولت التنكر لذاتية وفاعلية الإنسان من خلال التركيز على البنى اللاشعورية والأنسقة الاجتماعية الكبرى التي تتحكم فيه. ولكنها انتقلت في الفترة المعاصرة إلى السوسيولوجيا الإكلينيكية، بوصفها أداة تدخلية، من خلالها يمكن تحقيق تصالحاً للذات الإنسانية مع تاريخها، ومساعدتها على إعادة تأويله وبناء معاني جديدة له، تمكّنها من تجاوز ما تعتبره مشكلاتها، وتأهيلها لعيش حياة ذات معنى، حياة طيبة بالمعنى الفلسفي.

وعليه يمكن التأكيد إن سيرة الحياة ليست أداة ووسيلة للأكاديميا والإكلينيكية وحسب، وإنما آلية لتحقيق الاعتراف الاجتماعي بالإنسان، الذي صارت وضعيته معقدة في ظل التحولات العالمية المرتبطة بسيادة النظام الرأسمالي النيوليبرالي، والهشاشة، والعولمة المؤمركة... ونعتقد بأن ما قدمناه في هذا المقال لا يتعدى إضاءات أولية، التي يمكن أن تشكل مدخلاً للبحث في هذا الحقل. والذي نتوخى من خلالها التشجيع على فتح هذا الورش، ورش البحث في سيرة الحياة كأداة للتدخل الاجتماعي، ومساعدة الباحثون والممارسون المهنيون على تجريبها وتطويرها تبعاً للسياقات المغاربية والعربية الإسلاميتين، وفي ذلك سعياً للاعتراف بإنسانية الإنسان، وتجديداً للمناهج البحثية والممارسات المهنية، وضمان علميتها ومهنيتها، ودمقرطتها وفق مبادئ الحرية و الإنصاف والاعتراف.

# قائمة المراجع

## المراجع العربية


- البجداينـي, ياسـين. (٢٠١٩). *تجربـة الهجـرة لـدى الشـباب فـي وضعيـة هشاشـة اجتماعيـة وأثرهـا علـى إعـادة بنـاء الهويـة: حالـة الشـباب الإفريقـي المتحـدر مـن المجتمعـات الإفريقيـة جنـوب الصحـراء الكبـرى*, (رسـالة لنيـل الماجسـتير، غير منشـورة). الربـاط: كليـة علـوم التربيـة - جامعـة محمـد الخامـس بالربـاط.

- البجداينـي, ياسـين. (٢٠٢١). تجربـة الهجـرة وأثرهـا علـى سـيرورة إعـادة بنـاء الهويـة الاجتماعيـة :حالـة المهاجريـن الأفارقـة مـن دول افريقيـا جنـوب الصحـراء الكبـرى بالمغـرب. تنسـيق: خالـد القضـاوي، وفـؤاد فرحـاوي، *الهجـرة وتفاعلاتهـا فـي عالمنـا المعاصـر*, ص ص. ١٤١-١٥٩. وجـدة: مركـز الدراسـات والبحـوث الإنسـانية والاجتماعيـة.

- فوبـار, محمـد. (يوليو-سـبتمبر, ٢٠١٥). السـيرة والسـيرة الذاتيـة كمنهـج .. مـن الأدب إلـى علـم الاجتمـاع. *عالـم الفكـر*, ٤٤، ص ص. ١٩١-٢٣٨.

- كيال, مها. (٢٠١٥). السيرة الحياتية منهجية وتقنيات بحثية. *الثقافة الشعبية*، ص ص. ١٤-٢٩.


## المراجع الأجنبية


- Annejoyeau et al. (2010). les récit de vie en gestion des ressources humaines: principes, portée, limites, *management et avenir*, 4(34), pp. 14-39.

- Barus-Michel, J. (2004). *souffrancde: sens et croyance leffet thérapeutique.* Toulouse: èrés.

- Berteaux, D. (2005). *L'enquete et ses méthodes: le récit de vie,* (éd. ٢ eme édition). Armand Colin.

- Bourdieu, P. (1998). La précarité est aujourd'hui partout. Pierre Bourdieu «*Contre-feux: propos pour servir à la résistance contre l'invasion néo-libérale*, pp. 95-101» Paris: Raison d'AGIR.

- Bourdieu, P. (1986, juin). L'illusion Biographique. *Actes de la recherche en sciences sociales,* pp. 62-63, pp. 69-72.

- de Gaulejac, V. (2008). Conclusion. Pour une clinique de l'historicité. Dans M. Legrand, V. de Gaulejac, M. Christ, M. de Halleux, A. Lainé, Y. J.-B. Lefebvre, . . . A. Trekker, *Intervenir par le récit de vie,* pp. 313-319. ERES.

- F Wacheaux .(1996) .*Méthodes qualitatives et recherche en gestion,* Paris: Economica.

- Francequin, G. (2008, décembre). *Cabinet de lecture.* Enfance & Psy.

- Gaulejac, V. d. (2008). «Introduction. L'histoire de vie a-t-elle un sens ?»,. Dans M. Legrand, V. de Gaulejac, M. Christ, M. de Halleux, A. Lainé, Y. J.-B. Lefebvre, . . . A. Trekker, *Intervenir par le récit de vie,* pp. 13-31. ERES.

- Gonseth, M.-O., & Maillard, N. (1987). L'approche biographique en ethnologie: point de vue cria tique: commentaire historique. Dans histoire de vie: approche pluridisciplinaire. Paris: Edition de la maison des sciences de l'homme.

- Jeune, P. L. (1998). *pour l'autobiographie.* Paris: le seuil.

- Lainé, A. (1998). *Faire de sa vie une histoire. théories et pratiques de l›histoire de vie en formation.* Paris: Desclée de Brouwer.

- Lefebvre, R. (2008). Dans M. Legrand, V. de Gaulejac, M. Christ, M. de Halleux, A. Lainé, Y. J.-B.

- Lefebvre, . . . A. Trekker, *Un atelier de récit de vie pour personnes en difficulté avec,* pp. 169-193 ERES.

- Lyotard, J.-F. (1979). *La condition postmoderne*. Paris: Éditions de Minuit.

- Mercier, L. (2008). Re-traiter sa vie : pratiques d'interventions biographiques auprès.Dans: Michel Legrand، Vincent de Gaulejac، Myriam Christ، Myriam de Halleux، Alex Lainé، Yohanan Jean-Baptiste Lefebvre، . . . Annemarie Trekker، *Intervenir par le récit*. pp. 213-234. ERES.

- Pierret, R. (2013). «Qu'est-ce que la précarité ?». Socio: la nouvelle revue des sciences sociales, pp. 307-330. *Consulté le*, 10 (26), 2016, sur https://journals.openedition.org/socio/511.

- Trekker, A. (2008). «Écrire pour (re)tracer son histoire de vie». Dans M. Legrand, V. de Gaulejac, M. Christ, M. de Halleux, A. Lainé, Y. J.-B. Lefebvre, . . . A. Trekker, *Intervenir par le récit de vie,* pp. 235-260. ERES.